

الفصل الثالث

مكتبات الجوامع والمدارس

أولاً: وقف الكتب والمكتبات على الجوامع والمساجد:

حظيت الجوامع والمساجد باهتمام كبير خلال مراحل التاريخ الإسلامي إذ كان تشييدها وتوفير الخدمات المناسبة لها هدفاً سعى إليه خلفاء وحكام ووزراء وعلماء وأثرياء لتقام فيها الشعائر الدينية، إضافة إلى استخدام بعضها للتعليم. ومن الطبيعي أن تكون بدايات انتشار التعليم في الإسلام في حلقات الدرس التي كانت تعقد فيها. وارتبط وجود الكتب في الجامع والمسجد بتوفير المصاحف فيها كي تستخدم من قبل المترددين عليها باعتبار أن قراءة القرآن الكريم هو جزء من العبادة، ومن هنا كانت المصاحف هي أقدم ما كان يوقف فيها.

وقد أشار أحد الباحثين إلى أنه بغض النظر عن الحجم والموقع فإن أغلب مكتبات المساجد، كانت مكتبات قرآنية إذ رافق إقامة المساجد وضع نسخ من المصاحف فيها، وأن من الأمور التي تعد من التقاليد الإسلامية العريقة إهداء ووقف المصاحف فيها^(١).

ومن أقدم الإشارات الخاصة بوقف المصاحف ما ذكر من أن عبد العزيز بن مروان غضب من إرسال الحجاج بن يوسف الثقفي بمصحف إلى مصر، فأمر بكتابة مصحف جعله في منزله، كان يؤخذ غداة كل يوم جمعة من المنزل إلى جامع عمرو بن العاص فيقرأ فيه، ثم يرد إلى موضعه. فلما توفي عبد العزيز اشتراه ابنه أبو بكر بألف دينار، ثم اشترته أسماء بنت أبي بكر بعد وفاة والدها بسبعمائة دينار فأمكنك الناس منه وشهرته فنسب إليها وعرف بمصحف أسماء، وعقب وفاة أسماء اشتراه أخوها الحكم بن عبد العزيز بن مروان من ميراثها بخمسمائة دينار، فاقترح عليه القاضي توبة بن نمر الحضرمي في عام ١١٨ هجرية بأن يجعله في الجامع فوافق، وأجرى على الذي يقرأ فيه ثلاثة دنانير في كل شهر^(٢)، ويمكن اعتبار ذلك العام بداية تاريخ وقفه في الجامع بشكل دائم.

وفي عام ٢٩٨هـ وقف شخص يدعو عبد المنعم بن أحمد ثلاثين جزءاً من المصحف في الجامع الأموي في دمشق، لا يزال جزء منه محفوظاً حتى اليوم في المتحف الوطني السوري كما يذكر يوسف العث^(٣).

وفي عام ٣٤٧ أحضر رجل من العراق مصحفاً ذكر أنه مصحف عثمان ابن عفان، كان فيه أثر دم قال إنه استخرجه من خزائن المقتدر بالله الخليفة العباسي، ووقفه في جامع عمرو بن العاص، ومن ثم أصبح الإمام يقرأ فيه يوماً، وفي مصحف أسماء المشار إليه سابقاً يوماً آخر، وقد وقف المقرئ علي هذا المصحف، ورأى على ظهره ما نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، هذا المصحف الجامع لكتاب الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه حمله المبارك مسعود بن سعد الهيتي لجماعة المسلمين للقراء للقرآن التالين له، المتقربين إلى الله جل ذكره بقراءته والمعلمين له ليكون محفوظاً أبداً ما بقى ورقه ولم يذهب اسمه ابتغاء ثوابه عز وجل ورجاء غفرانه، وجعله عدة ليوم فقره وفاقته، وحاجته إليه أناله الله ذلك برأفته، وجعل ثوابه بينه وبين جماعة من نظر فيه. وقد درس ما بعد هذا الكلام من ظهر المصحف والمندرس يشبه أن يكون — وتبصر ورقه وقصد بإيداعه فسطاط مصر في المسجد الجامع، جامع المسلمين العتيق ليحفظ حفظ مثله مع سائر مصاحف المسلمين فرحم الله من حفظه، ومن قرأ فيه، ومن عنى به، وكان ذلك في يوم الثلاثاء مستهل ذي القعدة سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً وحسبنا الله ونعم الوكيل^(٤).

وقد انتشر وقف المصاحف على الجوامع والمساجد، حتى أن بعضها كان يضم المئات منها مثل جامع عمرو بن العاص الذي يقال إن الحاكم بأمر الله الفاطمي أنزل إليه من القصر ألف ومائتين وثمانية وتسعين مصحفاً ما بين ختمات وربعات، فيها ما هو مكتوب كله بالذهب، ويمكن الناس من القراءة فيه^(٥)، كما أنه أنزل إلى جامع ابن طولون «ثمانمائة مصحف وأربعة عشر مصحفاً»^(٦).

ويبعث أحد ملوك المغرب بمصحف ضخيم حمل على بغل مع أبي عبد الله

محمد بن إبراهيم اليقوري المتوفى سنة ٧٠٧هـ ليوقفه بمكة، ولا شك أن المكان الذي قصد ذلك السلطان وقف المصحف فيه هو الحرم المكي^(٧).

وشارك بعض المشاهير في كتابة المصاحف بأنفسهم ووقفها في الجوامع من مثل علي بن أحمد الناصر لدين الله بن الحسن (ت ٦١٢هـ) ويكنى بأبي الحسن ويلقب بالملك العظيم، وكان من أبناء الخلفاء العباسيين واشتهر بحسن خطه، وقد ذكر أحد المؤرخين أنه شاهد مصحفاً بخطه وقفه بمشهد موني بن جعفر^(٨)، والعميد أبو علي الحسين بن أحمد الخوافي الأديب الذي كان من أولاد الرؤساء، وترك عمل السلطان وكتب بيده عدة مصاحف وقفها^(٩)، وكذلك فخر الدين أبو أسعد المبارك بن يحيى بن المبارك بن المخرمي البغدادي (ت ٦٦٤هـ) صاحب الديوان «كتب بيده عدة مصاحف وربعات ووقفها على المشاهد، فكان على ذلك إلى أن توفي^(١٠)». وشرف الدين محمد بن شريف بن يوسف بن الوحيد، وكان خطاطاً أديباً، توفي سنة ٧١١هـ «كتب المصحف في سبعة أجزاء بليقة ذهب بقلم الثلث في قطع البغدادي دخل فيها جملة من الذهب ووقفه في جامع الحاكم بالقاهرة»^(١١).

ويتضح مما سبق أن القرآن الكريم استحوذ على اهتمام الواقفين، وشكلت المصاحف نواة المكتبات الكبيرة التي تأسست في الجوامع والمساجد فيما بعد عندما ازدهرت الحركة العلمية وكثرة المؤلفات في معارف متنوعة في شتى الأمصار الإسلامية منذ القرن الثاني الهجري، ووجد أهل العلم في الكتاب وسيلة للدرس والتعليم، ولعل الجوامع خلال القرون الثلاثة الأولى لم تخلو من كتب مصنفة في علوم القرآن والحديث، وإن كانت النصوص التي تؤيد هذا الرأي غير متوفرة لنا حتى الآن، ولكن من المؤكد أن القرن الرابع شهد بدايات وقف الكتب بشكل واسع في الجوامع والمساجد، ويؤيد هذا الرأي قيام مكتبات وقفية في الجوامع منذ أوائل القرن الخامس الهجري سوف نورد فيما يأتي معلومات عن بعضها.

جامعا آمد وميفارقين :

فقد وقف الشاعر الكاتب أحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧هـ وزير أحمد بن مروان الكردي، صاحب ميفارقين وديار بكر مكتبة حافلة على

جامعي آمد وميفارقين^(١٣)، ومن الطبيعي أن يكون هناك ما دفع به إلى مثل هذا العمل وهو وجود مكتبة في المسجد سابقة لعام ٤٣٧هـ، وظلت هذه المكتبة فترة طويلة في الجامعين حتى عهد ابن خلكان الذي يقول عنها: «وهي الآن موجودة بخزائن الجامعين ومعروفة بكتب المناري»^(١٣).

جامع أبي حنيفة في بغداد :

وأوصى الطبيب يحيى بن عيسى بن جزلة المتوفى سنة ٤٩٤هـ، بكتبه لتكون وفقاً بجامع أبي حنيفة في بغداد^(١٤)، وما أقدم عليه ابن جزلة يوحى بأن الجامع كان يضم مكتبة وهو أمر غير مستبعد لمكانة صاحب الجامع.

* * *

وعندما نصل إلى القرن السادس الهجري نجد اتجاهها واضحاً نحو العناية بمكتبات الجوامع والمساجد، وتواصل هذا الاهتمام حتى فترة قريبة مغطياً مساحة عريضة على امتداد البلاد الإسلامية.

الجامع الأزهر في القاهرة :

وكان الجامع الأزهر يضم مكتبة خاصة به، يدل على ذلك ما ذكره ابن ميسر في تاريخ مصر في أخبار سنة ٥١٧هـ، أنه قد أسند إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح منصب الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب^(١٥). وكان مما احتوت عليه هذه المكتبة فيما بعد كتاب القواعد لمحمد بن أحمد التلمساني المقري المتوفى سنة ٧٥٩هـ، وهو كتاب كان نادراً في المشرق في تلك الفترة حتى أن الونشريسي ذكر أنه لم ير منه بمصر إلا نسخة عند أحد الأفراد أخذها من أوقاف رواق المغاربة بالأزهر^(١٦). ومن الذين وقفوا على الأزهر كتباً في القرن الثاني عشر الأمير محمد غانم، كان من بينها نسخة من أساس البلاغة للزمخشري، عليها نص وقفية في عام ١١٣٤هـ^(١٧).

جامع نيسابور :

وكانت فيه مكتبة لعل جذورها تضرب إلى القرن الخامس الهجري، فقد ذكر ياقوت الحموي عند ترجمته لمحمد بن إسحاق بن علي بن داود الزوزني المتوفى

سنة ٤٦٣هـ نقلاً عن عبد الغافر بن اسماعيل بن عبد الغافر الفارسي (ت ٥٢٩هـ) أنه كان ينسخ الكتب، وكتب نسخة من غريب الحديث للخطابي، قرأها على جده عبد الغافر الفارسي قراءة سماع، وعلى الحاكم قراءة تصحيح واتقان... «وأقطع على الله تعالى أن لم يبق من ذلك الكتاب نسخة أئبن ولا أملح منها، وهي الآن برسم خزانة الكتب الموضوععة في الجامع القديم، موقوفة على المسلمين، ومن أراد صدقي في ادعائي فليطالعه منها»^(١٨).

جامع حلب :

ومن الذين وقفوا كتباً فيه، أبو بكر محمد بن علي بن ياسر الجباني، الأنصاري المتوفى سنة ٥٦٣ إذ أنه استوطن حلب «ووقف بجامعها كتبه...»^(١٩).

جامع الزيدي في بغداد :

وهو من وقف علي بن أحمد بن محمد العلوي الحسيني الزيدي نسباً المتوفى سنة ٥٧٥هـ، وكان من أعيان عصره واشتهر باهتمامه بجمع الكتب وتحصيلها مع رفيقه صبيح النصري، وقد وقفا كتبهما على هذا المسجد بعد إنشائه، وكانت تضم ما كتبهما بخطيهما واستكتباه بخطوط غيرهما، واقتنياه من كتب، ولعل كتب الزيدي كانت أكثر عدداً إذ كانت لديه «من الكتب المصنفة والأسانيد والأجزاء شيء كثير»^(٢٠).

وخص المؤلف الشهير ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ هذا الجامع بكتبه فأوصى بوقفها فيه، وسلمها إلى المؤرخ ابن الأثير صاحب الكامل ليودعها فيه، بعد وفاته.^(٢١)

جامع أصفهان :

وأسس تاج الملك مكتبة ألحقها بجامع أصفهان، هي التي يشير إليها محمد صفي الدين الكاتب الأصفهاني مؤلف خريدة القصر عند حديثه عن أبي الحسن الباخري صاحب دمية القصر، عندما يقول: «... وطالعت هذا الكتاب في أصفهان في دار الكتب التي لتاج الملك بجامعها، ويعتني على تأليف كتابي هذا خريدة القصر في شعراء العصر»^(٢٢)، وكانت مكتبة هذا الجامع موجودة في فترة بين ٥١٩ و ٥٩٧ وهي عاشها العماد الأصفهاني.

المسجد النبوي بالمدينة :

وتكونت في هذا المسجد مكتبة كبيرة كانت حصيلة ما وقفه الملوك والحكام والعلماء الأثريا في مراحل تاريخية مختلفة، ففي عام ٥٨٠هـ، كانت فيه «خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة»^(٢٣)، وكانت لإبراهيم بن رجب بن حماد الرواشي الكلابي المتوفى سنة ٧٥٥هـ كتاباً نفيسة «وقفها بالمسجد النبوي»^(٢٤).

ووقف سلطان بلاد فارس شاه شجاع بن محمد بن المظفر اليزدي المتوفى سنة ٧٨٧ خزانة كتب بالمسجد النبوي عند زيارته للمدينة، قال عنها السخاوي «له في الحرم المدني آثار أبرز بها خوافي المحامد، وآثار منها: الخزانة الشريفة المشتملة على محاسن الكتب ومفاخرها، فما من طالب مقتبس إلا وهو يستفيد من جواهر زواجرها»^(٢٥).

وفي فترة متأخرة وقف فيه محمد البرزنجي الحسيني المدني خزانة كتب، وصفها عبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ في رحلته (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) فقال:

وذهبنا وقت العصر إلى الحرم الشريف، وفتحوا لنا باب خزانة الكتب التي وقفها السيد محمد البرزنجي الحسيني الشهرزوري المدني، فوجدنا فيها كتباً كثيرة، في علوم شتى منها الجامع الكبير في الحديث للجلال السيوطي رحمه الله تعالى، في خمس مجلدات كبار، ومنها جزء ثالث في مجلد كبير ضخيم من شرح سنن ابن ماجه للشيخ الدميري رحمه الله تعالى، ومنها تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى، والموجود منه غير المكرر ثلاث وتسعون جزء كل جزء مجلد على حدة نحو الثلاثة أو أربعة كراريس بالقطع الكامل، وهي أجزاء متفرقة منها الجزء الأول والأخير، ومنها ما هو بعد المائة، وما بعد المائتين وبعد الثلاثمائة، وبعد الأربعمائة وبعد الخمسمائة، وجملة مجلدات أجزاء الكتاب خمسمائة وسبعون مجلداً..^(٢٦).

وامتد الوقف على المسجد النبوي إلى فترات قريبة، ففي عام ١٣٢٠هـ وقف

محمد العزيز، الوزير التونسي مجموعة تصل إلى ألفي كتاب، كما وقف إبراهيم منصور المصري، مجموعة من الكتب في عام ١٣٥٧هـ على الروضة.

وقد جمعت كافة الكتب الوقفية فيه وجعلت في مكتبة مكانها حالياً فوق باب عمر بن الخطاب في الجهة الشمالية من المسجد، وكان المرحوم عبيد مدني هو صاحب اقتراح تجميعها وجعلها في خزانة واحدة وذلك في عام ١٣٥٢هـ^(٢٧).

الجامع الأموي في دمشق :

وقد كان لوقوع هذا الجامع في مدينة دمشق التي تعتبر مركزاً ثقافياً وعلمياً مهماً خلال فترات طويلة من تاريخ الإسلام، أكبر الأثر في نشاط الحركة العلمية فيه، واستخدامه في الأغراض التعليمية، الأمر الذي أدى إلى أن تتكون فيه مكتبة كبيرة جاءت حصيلة أوقاف العلماء والحكام والأثرياء، والذين كان من بينهم :

زيد بن سعيد بن عصمة أبو اليمن الكندي المتوفى سنة ٦١٣هـ، وكان عالماً جليلاً وقف كتبه «وكانت نفيسة وهي سبعمائة وإحدى وستون مجلداً على معتقه نجيب الدين ياقوت، ثم على العلماء في الحديث والفقه واللغة، وغير ذلك وجعلت في خزانة كبيرة في مقصورة ابن سنان الحلبي...»^(٢٨)، وأشار إليها أحد المؤرخين قائلاً «له خزانة كتب بالجامع الأموي فيها كل نفيس...»^(٢٩).

وسيف الدين محمد بن عروة الموصلي الذي ينسب إليه مشهد ابن عروة، لأنه أول من فتحه... ووقف فيه خزائن كتبه^(٣٠)، ويبدو أن المكتبة كانت متخصصة في كتب الحديث إذ أن الواقف جعل مشهده مقراً لتدريس الحديث، فأطلق عليها دار الحديث العروية^(٣١)، ولكنها لم تخل من كتب في فنون أخرى إذ كان ضمن الوقف فيها: «تاريخ الأطباء لابن أبي أصيبعة، في عشر مجلدات لطاف»^(٣٢).

وحسن بن محمد بن اسماعيل بن منصور بن أحمد التاجر بدر الدين بن الطحان المتوفى سنة ٧٤٧هـ، وكان يعمل ميعاداً بالجامع الأموي ووقف فيه كتباً^(٣٣).

وعلي الدفترى المتوفى سنة ١٠١٨ وكان قد وقف كتبه واستودعها بيت الخطابة بالقرب من المقصورة^(٣٤)، ولعل هذه هي الكتب التي يشير إليها أحد معاصريه الذين عرفوه عن قرب حيث يقول: «وأوقف وقفاً وكتباً على دمشق... والكتب المذكورة عظيمة حسنة وافرة مشهورة قل من ملك مثلها أو ظفر بمثله...»^(٣٥)

جامع الحاكم بالقاهرة :

ويبدو أنه كانت فيه مكتبة أصيبت بأضرار عقب الزلزال الذي وقع في عام ٧٠٣هـ، وذلك أنه عندما أعيد إصلاحه وترميمه بإشراف ركن الدين بيبرس الجاشنكير، جعل فيه خزانة كتب، وأجرى على الجامع أوقافاً ظلت باقية حتى عهد المقرئ^(٣٦).

الجامع الظاهري بالقاهرة :

وممن وقف فيه كتباً، يحيى بن عبد الوهاب بن عبد الرحيم الدمنهوري الشافعي المتوفى سنة ٧٢١هـ إذ وقفها عند موته^(٣٧).

جامع القرويين بفاس :

واهتم سلاطين المغرب من بني مرين بالكتب، ووقفوا عدة خزائن منها على طلبة العلم بهذا الجامع من أقدمها الخزانة العنانية التي أنشأها أبو عنان المريني في عام ٧٥٠هـ وكانت شاملة لكافة العلوم، ويحدد أحد الباحثين موقعها فيشير إلى أنها في المستودع الموجود شرقي الصحن عن يمين المتجه إلى داخل المسجد، ويذكر أن في أعلى بابها وثيقة منقوشة على الخشب بحروف ناتئة فيها اسم المنشئ والتاريخ والهدف منها، كما أورد نص الوثيقة وهو.

..الحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعبد،

ورضى الله عن الخلفاء القائمين بالحق من بعده.

مما أمر به من أحيا الله بآيائه الأنام، وتدارك بدولته الإسلام، أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، وطب ملوك الزمان، المظفر المنصور المولى أبو عنان، ابن الخلفاء الراشدين المرهيين أدام الله للمسلمين أيامه، ونشر أعلامه، إنشاء هذه الخزانة السعيدة، الجامعة

للعلم المجيدة، المشتملة على الكتب التي أنعم بها من مقامه الكريم، المحتوية على أنواع من العلوم الواجب لها التعظيم والتكريم، جعل ذلك نصره الله وقفاً مؤبداً لجميع المسلمين، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، حضاً منه أيده الله على طلب العلم وإظهاره، وارتقائه واشتغاره، تسهياً لمن أراد القراءة والنسخ منها والمطالعة والمقابلة، وليس لأحد أن يخرجها من أعلى المودع التي هي فيه، ولا يغفل المحافظة عليها والتشويه، أراد بذلك وجه الله العظيم، وثوابه الجسيم، ضاعف الله بذلك حسناته، ورقى في الجنان درجاته، وأطال ملكه، ونظم في الصالحات سلكه، وذلك في جمادي الأولى عام خمسين وسبعمائة أوصله الله بالبركات الزكية^(٣٨).

كما وقف ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ نسخة من تاريخه بعد أن أتمه على مكتبة هذا الجامع لا يزال منها مجلدان على غلاف أحدهما نص عبارة الوقفية حتى اليوم^(٣٩).

وفي عهد الدولة السعدية أنشأ أحمد المنصوري السعدي مكتبة في جهة القبلة عن يسار خزانة المصاحف العنانية عرفت فيما بعد بالخزانة الأحمدية أو السعدية وقد تتابع الاهتمام بمكتبة جامع القرويين فيما بعد إذ شارك.

وجهاء الدولة من ملوك ووزراء وكذا العلماء في وقف بعض الكتب عليها ومنهم من أوقف مكتبته الخاصة بأكملها، ومن الكتب التي أوقفت بهذه المكتبة الجامع الكبير للسيوطي والسماء والعالم في اللغة — لابن أبي عبد الله القرطبي، وتفسير ابن حيان، ومواهب الجليل على مختصر خليل، وقد امتد الوقف على هذه المكتبة حتى عصر الملك محمد الخامس الذي أوقف نسخة من مواهب الجليل على مختصر خليل بهذه المكتبة في عام ١٣٥٠ هـ^(٤٠).

مسجد الرضواني في تعز :

وشيده جوهر بن عبد الله الرضواني المتوفى في عشر الخمسين وسبعمائة ووقف عليه كتباً^(٤١).

الجامع الجديد بالصالحية :

أنشأه على تربة ربيعة خاتون، علم الدين بن حسين العقري التاجر سنة ٧٩٠هـ ودرس فيه جماعة منهم جمال الدين ابن طولون الذي وقف كتبه عليه^(٤٢).

جامع الزيتونة في تونس :

وقد ضم مجموعات كبيرة من الكتب الوقفية على مدار السنين، وكان من الذين ساهموا في وقف الكتب عليه الأمير أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي المتوفى سنة ٧٩٦هـ، وكانت في خزانة «مشملة على أمهات الدواوين، وجعل لها مقصورة بمجنبة الهلال من الجامع الأعظم ووقفها على طلبة العلم ينتفعون بالنظر والكتب...» ويبدو أنه كان هناك ما يمنع من استخدامها استخداماً مفيداً من قبل طلبة العلم، مما دفع بخليفته أبي عبد الله محمد المنتصر بن محمد بن أبي فارس عبد العزيز الذي تولى الإمارة الحفصية في سنة ٨٣٨ إلى إخراجها من مكانها الذي كانت فيه إلى مكان آخر «ووقف عليها وقفاً كافياً مؤبداً»^(٤٣).

جامع أزبك الأشرفي في القاهرة :

وعمر أزبك من ططخ الأشرفي في فترة تعود إلى أواخر القرن التاسع الهجري جامعاً كبيراً وذلك أثناء أتابكته «وكان مما عمله فيه خزانة لكتب العلم»^(٤٤)

الجامع الظافري في زيد :

وكانت فيه خزانة كتب، يدلل على ذلك ما ذكر من أن كتاب فتح الباري لابن حجر حظيت أول نسخة منه تصل اليمن في عام ٩٠١ باهتمام كبير، وقد حمل هذه النسخة الفقيه جمال الدين محمد بن أحمد العطاب إلى زيد، فنسخت منها نسخة جيدة بخطوط معتبرة وقوبلت على الأصل ووقفت بالجامع الظافري، والخبر يبين مدى العناية التي كانت تولى بمكتبات المساجد إذ يتضح لنا منه الحرص على توفير أحدث ما يصل إلى البلاد من كتب لتكون ضمن خزانة المسجد عن طريق الوقف^(٤٥).

جامع أبي الذهب في القاهرة

أسس هذا الجامع محمد بك أبو الذهب المتوفى سنة ١١٨٩هـ، الذي حكم مصر منذ عام ١١٨٧هـ. وقد وقف بمسجده هذا مكتبة جاء في وثيقتها :

وإن مولانا الأمير محمد بيك الواقف المشار إليه أعلاه وقف أيضاً
وحبس وسبل وتصدق لله سبحانه وتعالى بجميع الكتب الشريفة الجليلة
المعتبرة التي حوت القرآن وأنواع الفنون من تفسير وحديث وفقه وشروح
ومتون وغير ذلك مما يأتي بيانه فيه المشتملة بدلالة دفتر المكتب في
شأن ذلك...^(٤٦)

والكتب التي وقفها يدوا أنها هي تلك التي كانت في ملكه وحيازته وقد أشار
إلى ذلك في وثيقة الوقف، وكان قد عنى بتكوين مكتبته فاشترى لها النادر
والحديث من الكتب، وبلغ من اهتمامه أن اشترى من المرتضى الزبيدي شرحه
للقاموس المسمى بتاج العروس بمبلغ مائة ألف درهم فضة، وبلغ رصيد المكتبة
في القرن الثالث عشر ١٢٩٦ مجلداً عد المصاحف الذهبية القيمة^(٤٧).

ويذكر عبد اللطيف إبراهيم في دراسته لمجموعة هذه المكتبة الوقفية أنها
كانت تدور حول القرآن وعلومه والحديث وفقهه على المذاهب الأربعة والفتاوي
والشروح والحواشي المختلفة والتوحيد والفرائض والمنطق وكتب اللغة من معاجم
وصرف وبلاغة، وأنها كانت مما يحتاج إليه طلبة العلم حيث وجد أن هناك تكراراً
في عدد النسخ بالنسبة للكتب المقررة للدراسة^(٤٨).

ولإعطاء نماذج من العناوين التي كانت تضمها المكتبة نورد بعض ما ورد في
وثيقة وقفها مما يشير إلى ذلك :

والخازن خمسة نسخ ثلاثة عشر جزوا والبغوى نسخة واحدة جزوين...
الاتقان للسيوطي نسخة واحدة... وأسيلة القرآن وأجوبتها للرازي نسخة
واحدة... ومختصر البخاري لابن أبي جمرة نسخة واحدة... والطريقة
المحمدية نسختين... والدراية لقرأ النقاية للسيوطي نسخة واحدة...
والسندي على النسائي أيضاً نسخة واحدة... ويدايع الصنائع نسخة
واحدة... ومجمع الأنهر على ملتقى الأبحر نسخة واحدة... والفيشي
على العزية نسخة واحدة... والمفصل للزمخشري نسخة واحدة...
والشنواني على الأهرية نسخة واحدة... ومطالع الأسرار على الشمسية
نسخة واحدة... وشرح العقائد لابن قاسم الغزي نسخة واحدة...
والسعد على المقاصد نسخة واحدة...^(٤٩)

الحرم المكي :

وطالب أحد المؤرخين المتأخرين (أوائل القرن الحادي عشر الهجري) السلطان مراد أن يضيف إلى أعمال البر التي أقامها بمكة المكرمة أن ينشئ مكتبة فيها، مثيلة لتلك الموجودة بالمدينة المنورة، وعمم مطالبته فقال :

«وأنا أسأل من فضل من طالع هذا المختصر من العلماء الأعلام والكبراء الفخام أن يسعى في ذلك لجيران بيت الله الحرام فإنهم محتاجون لهذا الإنعام»^(٥٠) وهذه المطالبة في ظني لا تعني أن الحرم المكي لم تكن فيه كتب وقفية بقدر ما تعني الحاجة إلى إقامة بناء منظم يحوي ما كان في الحرم من كتب وقفت عليه على مر السنين، مع إضافة مجموعات أخرى عليها لتكون مناسبة لمكانة الحرم المكي، ولعل الفترة التالية لخلافة السلطان مراد شهدت عناية بوقف الكتب على الحرم بشكل جيد، فتكونت مجموعات كبيرة تحتويها حالياً مكتبة الحرم المكي المقامة خارجه، والتي تضم آلاف المخطوطات النفيسة التي كانت وقفت عليه.

والمؤكد أن كثيراً من الحكام والأمراء والعلماء والوزراء وبعض الحجاج قد وقفوا كتباً عليه من مثل الحاج محمد بن محمد القط الذي وقف نسخة — من الميزان الشعرانية وكتب عليها ما نصه :

أوقف وتصدق العبد الفقير إلى الله سبحانه وتعالى الواصل إلى هذا الحرم الشريف الحاج محمد بن المرحوم الحاج محمد القط هذا الكتاب المبارك لله ورسوله بأعلا ظهر زمزم لكل من يقرأ فيه من المسلمين بنظر الصالح الزمزمي ابن عبد السلام الزمزمي له النظر فيه،
والصلاة على سيد البشر^(٥١).

وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجري وقف صالح الحريري المتوفى سنة ١٢٩٢هـ «سائر كتبه في حياته، وجعل مقرها قبة كتب خانة العثمانية الكائنة بالمسجد الحرام»^(٥٢).

والنص الأخير يدل على أن مطالبة القطبي لم تذهب سدى فأقيمت خزانة كتب هي التي كونت محتويات العثمانية أو المجيدية التي أنشئت حوالي عام ١٢٦٢هـ.

ومن الواضح أن ما ذكر في الصفحات السابقة، ماهي إلا نماذج متواضعة تعبر عما كانت تحظى به المساجد والجوامع من عناية الواقفين المهتمين بأمور العلم، الحريصين على إستفادة طلابه من مصادر المعلومات التي تساعدهم وتعينهم على الدرس والتحصيل أثناء ترددهم على حلقات العلم في المساجد والجوامع، كما يتضح لنا منها بشكل جلي أن المساجد عرفت المكتبات قبل القرن الخامس الهجري، وأنها سابقة لمكتبات المدارس وهو على خلاف ما ذهب إليه أحد الباحثين المعاصرين الذي يرى أن مكتبات المساجد لم تكن معروفة قبل القرن الخامس وأن ما كان بها اقتصر على المصاحف وحدها^(٥٣)، إذ أن ذلك يخالف الواقع الذي تشهد عليه كتب التراث، حيث كانت الجوامع هي مدارس العلم قبل ظهور فكرة المدارس المنظمة، وهو ما يعني أن مكتباتها أسبق من مكتبات المدارس من حيث النشأة، فإذا عرفت أن جامع آمد قد حوى مكتبة في الربع الثاني من القرن الخامس، فإن في ذلك دلالة على أن من الأولى أن تكون الجوامع الكبيرة في عواصم البلاد الإسلامية قد عرفت المكتبات قبل ذلك، بل لعل جامع آمد نفسه ضم كتباً وقفية قبل أن يوقف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ كتبه على جامعي آمد وميافارقين.

وللتعرف على ضخامة ما كانت تحتوى عليه مكتبات الجوامع والمساجد في أنحاء العالم الإسلامي فإن في إمكان المرء الرجوع إلى كتاب سركين حين أورد أسماء بعض الجوامع التي تضم مخطوطات، ووضعت لها فهراس تنم عن محتوياتها^(٥٤)، وكذلك أطروحة محمد مكّي السباعي التي قدمها إلى قسم المكتبات والمعلومات بجامعة أندينا عام ١٩٨٤م وحصل بها على درجة الدكتوراه وهي بعنوان:

An Historical Investigation of Mosque libraries in Islamic life and culture

ثانياً: وقف الكتب والمكتبات على المدارس :

أدرك الأسلاف أن الكتاب أداة ضرورية في العملية التعليمية لا غنى عنه للمعلم والمتعلم، فكان أن واكب إنشاء المدارس الاهتمام بتوفير أكبر قدر من الكتب فيها، منها ما يتصل بالمجال الموضوعي، أو المجالات الموضوعية التي تتخصص فيها المدرسة، ومنها ما يدخل في باب المعارف العامة التي لا يستغني